دلالة الصورة الفنية في قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم (سورة طه نموذجًا)

محمد شوقي بن أرشد[١]
دكتور محمد راضي محمد الباز الشيخ[٢]

ملخص البحث

تكمن مشكلة البحث في توضيح مفهوم الصورة الفنية وبيان مفرداتها، وأثرها الفني، والدلالي، وإبراز دورها في الإقناع والتأثير. بعض الناس يكتفي بقراءة ترجمة القرآن بدون تأمل تفسيره تأملًا شديدًا. فيأتي هذا البحث ليُفصِّل الترجمة الغامضة عند بعض قراء الترجمة برسم أو تصوير إطار أو وضع أو جَوّ أو ظروف محيطة أو بيئة أو حالة لحادثة ما،كأننا نستطيع أن نتخيلها أمامنا. ويهدف هذا البحث إلى دراسة الصورة الفنية في قصة موسى – عليه السلام – وما يتعلق بها، وتوضيح دورها في إثراء الدلالة القرآنية، وتوضيح مراد الله سبحانه، وإبلا غ رسالته للبشرية. ومحاولة دراسة القرآن من وجهة نظر فنية وبيانية وذوقية وجمالية تُعني بإبراز عذوبته وبيانه الراقي المعجز. ويقتصر هذا البحث على الصورة الفنية في قصة موسى – عليه السلام – في سورة طه ودراسة مصادرها ومفهومها وأثرها الفني والدلالي.

الكلمات المفتاحية: موسى عليه السلام، الصورة، الفن، الأثر

Abstract

Every Muslims, regardless of his ability to recite the Quran or mastering the Arabic language, receive a great reward from Allah for reciting the Quran, contemplating its meaning and applying its teaching. But it is noticeable that some readers of Quran while depending on Quranic translation fail to comprehend its interpretation perfectly. Therefore, this research studies the concept of the technical image and its vocabulary in Quran and its artistic and semantic effect. In addition, it also aims to highlight its role in persuasion and influence of the readers. This research comes to detail the mysterious translation of some translation readers, by drawing of photographing a frame, situation, atmosphere, surrounding conditions, environment, or state of an accident, as if we could imagine it in front of us. This research

[١] محاضر في كلية اللغة العربية، جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية، بِولاية قدح – ماليزيا.

[٢] محاضر في كلية اللغة العربية، جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية، بِولاية قدح – ماليزيا.

aims to study the artistic image in the story of Moses – peace be upon him – and what is related to it, and clarify its role in enriching the Quranic significance, clarify the will of God Almighty, and communicate his message to humanity. Other than that, this study also explains the role of visual art in enriching the Quran connotations, explaining what Allah really meant (through His word), and communicating His message to mankind. This study focuses on the artistic portrayal of the story of Moses in the Surah Toha, and examines its artistic, semantic and its source, concept and impact.

Keywords: Moses Peace Be Upon Him, Image, artistic, Impact

المقدمة

يحاول البحث إلقاء الضوء على دلالة الصورة الفنية في قصة موسى – عليه السلام – في القرآن الكريم، وأثرها على إثراء الدلالة حيث إن استخدام التصوير الفني أو الصورة الفنية في القرآن الكريم ظاهرة لافتة للنظر في بناء عبارته، فهي: "الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسَّة المتخيِّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنسانيّ والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة"[٣]

والقصة إحدى الوسائل التي لجأ إليها القرآن الكريم ضمن وسائله المتعددة، فكان لها حضور لافت للنظر في آيه وسوره. وهذا البحث يلقي الضوء على الصورة الفنية وتوظيفها ودلائلها الإيحائية في قصة موسى – عليه السلام – في سورة طه. والقصة في القرآن: "ليست عملًا فنيًّا مستقلًّا في موضوعه وطريقة عرضه وسير حوادثه – كما الحال في القصص الفني – إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع، وإن القصة التي ترد فيه لا تختلف في غايتها عن المثل الذي يضربه الله للناس"[٤].

والصورة الفنية لها خصوصية في القصة القرآنية إذ تعتمد عليها القصة بوصفها أحد التقنيات الفنية الأصيلة في التأثير والإقناع.

وقصة موسى – عليه السلام – أكثر القصص ورودًا في القرآن الكريم، وتزخر القصة بفيض غزير من التقنيات الفنية أهمها الصورة الفنية التي أثرت تأثيرًا مباشرًا في الأحداث والشخصيات، والمواقف والحوارات، والحالات النفسية وغيرها من الأشياء الأخرى سوف يوضحها البحث إن شاء الله.

[٣]) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط٨، ١٩٨٣م، ص٣٦

[٤]) بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، ط ١٩٩٤م، ص ٢١٧

القصة القرآنية

حاول الباحث وضع صورة عامة للقصة ومكانتها عند الناس عامة والعرب خاصة. ويليها البيان عن القصة القرآنية التي يَهُمُّ الباحث التركيز فيها. ومن المؤكد أن هذا البحث يُعَدُّ من دراسة قرآنية، ويحاول الباحث أن يكشف بعضًا من أسرار القرآن؛ لأن باب القصص القرآني فسيح، وساحته واسعة.

جاء القرآن الكريم بمعجزته البيانية متحديًا العرب قاطبةً وهم أهل البيان وسدنته، فجاءت أساليب القرآن وبيانه المعجز فجعلهم عاجزين عن الإتيان بمثله. ولقد بيَّن الله – عزّ وجلّ – أن القرآن الكريم ليس هو كما الأبيات الشعرية التي ألقاها الشعراء والأدباء، بل هو كلام الله تعالى المنزّل بمنهجه القويم على الناس أجمعين ويهديهم إلى صراط مستقيم. يقول الله تبارك وتعالى: ((**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا**)) (سورة الكهف: ١)

إن الكتاب الحكيم معجز في كل ما تضمنه وتشمله من قصص وعبر، فالقصص القرآني صدق كله، ولا يوجد فيه أي افتراء كما زعمه المشركون والكافرون، فلا ينبغي أن يشك فيه، فقد قال تعالى: ((**لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ، ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى، وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدىً، وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) (سورة يوسف: ١١١)

ومن الأمور التي لا إنكار فيها أن أصحاب العقول السليمة وجدوا عبرة وعظة كثيرة، والأفكار القويمة في قصص الأنبياء الكرام وما جرى لهم من أقوامهم، وذلك بسبب محتويات هذا القصص من حِكم وأحكام، وآداب وهدايات. فلا يوجد حديث يُختلَق في كتاب الله تعالى، ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب السابقة عليه، كالتوراة والإنجيل والزبور. وكان في هذا الكتاب أيضًا البيان بالتفصيل لكل شيء من الشرائع المجملة التي تحتاج إلى ذلك، وكان هداية تامة، ورحمة شاملة، لقوم يؤمنون به، ويعملون بما فيه من الأوامر والنواهي، ويستفيدون بما اشتمل عليه من وجوه العبر والعظات.

مفهوم الصورة الفنية ووظيفتها.

قد سبق الحديث عن القصة القرآنية على وجه الخصوص، فهي طريقة من طرق القرآن الكريم الكثيرة التي ساقها الله – عزّ وجلّ – لتحقيق الهدف الذي أنزله من أجله، وهذا الهدف ينتظم كل السور القرآنية على اختلاف غاياتها الظاهرة، وموضوعاتها لتشكل في النهاية غرضًا أصليًّا نزل من أجله القرآن الكريم بأسره.

وعلى ضوء هذا، فالغاية الأسمى من هذا البحث هو الوصول إلى سر الإعجاز القرآني عبر فهم الصورة الفنية الموجودة في القرآن، وفهم أساليبه الرفيعة التي لا تتم إلا عن طريق معرفة أساليب البلاغة وفنونها، ومنها فنّ الصورة، إذ ينبغي على الباحث والدارسين الآخرين معرفة كتاب الله – عزّ وجلّ –، الذي هو مادة هذه العقيدة،

ليردوا عنه شبهات الخصوم من ناحية، وليظهروا ما فيه من وجوه الرفعة التي جعلته مُعجزًا يتحدى الجميع أن يعارضوه أو أن يأتوا بمثله من ناحية أخرى.

وبالرغم من أن مصطلح الصورة الفنية يعد مصطلحًا حديثًا على النقد العربي بهذه الصياغة الجديدة له، إلا أن المشاكل والقضايا التي يثيرها المصطلح الجديد ويطرحها موجودة في التراث، وإن تفاوتت تقنية العرض والتناول، أو فُرِّقت درجات التركيز والاهتمام.

والحديث عن الصورة الفنية قديم، حيث فطن لها نقادنا وبلاغيونا القدامى مثل الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز).

ولاحظ الباحث أن هذا الأمر ذو علاقة وطيدة بالملاحظة التي أبداها فرانسوا مورو في كتابه حيث يقول: "إن الكلمة (صورة) Image هي واحدة من الكلمات التي ينبغي أن يستعملها عالم الأسلوب بحذر وضبط دقيقين، إذ إنها غامضة وغير دقيقة في نفس الآن، غامضة لكونها تسمح باستعمالها بمعنى عام مبهم جدًّا وواسع جدًّا، وذلك بالنظر إلى هذا الاستعمال من منظور أسلوبي خاص، وغير دقيقة لأن استعمالها، ولو في مجال البلاغة المحصور، عائم وغير محدد بدقة."[٥]

فقد ورد تعريف (الصورة) في (لسان العرب) حيث ذكر أن: "صور: في أسماء الله تعالى: المُصوّر وهو الذي صوَّر جميع الموجودات ورتَّبها فأعطى كلَّ شيء منها صورةً خاصة وهيئةً مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها... والصورة في الشكل، والجمع صُوَرٌ وصِوَرٌ وصُوْرٌ، وقد صوَّرَه فتصوَّرَ، وتصورت الشيء، توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير، التماثيل."[٦]

وظيفة الصورة الفنية

لقد أدت الصورة الفنية في النقد القديم وظائف شتى أهمها (التزيين أو التشويه) أو (الشرح أو التوضيح) و(العجب أو التأثير) وغيرها من الوظائف التي ارتبطت بميل كل شاعر ومقتضيات بيئته.

ولا يبتعد القرطاجني عن هذا السياق حين يقسم التصوير أو كما يسميه هو (التخييل) إلى قسمين، يقول: "ينقسم التخييل بالنسبة إلى الشعر قسمين: تخييل ضروري، وتخييل ليس بضروري، ولكنه أكيد ومستحب لكونه تكميلًا للضروري وعونًا له على ما يراد إنهاض النفس إلى طلب الشيء أو الهرب منه."[٧]

أي أن وظيفة الصورة عنده تأثيرية، إما بالترغيب أو التنفير.

---

[٥]) فرانسو مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣م، ص١٥

[٦]) ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، تح: نخبة من السادة الأساتذة المتخصِّصين، ٢٠٠٣م ج٥/٤٢٧

[٧]) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٨٩

ونجد وظيفة الصورة قد اتسعت نوعًا ما عندما نلتقي بالرُّمَّاني، وهو يركز على وظيفة التوضيح والإبانة، وذلك من منطلق الفكر والعقل، يقول: "وللتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء، وتظهر فيه بلاغة البلغاء وذلك أنه يكسب الكلام بيانًا عجيبًا ... والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه منها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة"[٨]

الصورة الفنية في قصة موسى – عليه السلام – في سورة طه

كما نعلم أن القرآن الكريم حوى كثيرًا عن الأمم السابقة فذكر معاشهم، ووصف حياتهم ونشاطهم وبيَّن عقائدهم ومذاهبهم، ووضَّح مواقفهم من رسل الله إياهم. وبذلك حفظ لنا مادة طيبة للقصة القرآنية المشتملة على الأحداث والأشخاص والزمان والمكان.

وثبت للباحث أن القصة القرآنية تملك جميع عناصر القصة الفنية. "فالمكان والزمان والأشخاص والحوادث موضوع الحوار كل ذلك واضح فيها، إلا أنها لكونها هادفة تركز مرة على أحد هذه العناصر، ومرة أخرى على غيرها، وهكذا تراعي الهدف الذي تدعو إليه."[٩]

والآن هيا إلى الدخول في سورة طه التي يتناول الباحث فيها الصور الفنية المتعلقة بقصة موسى – عليه السلام – في بعض الآيات المختارة نموذجًا.

واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء

ومن دلالة الصورة الفنية في قصة موسى – عليه السلام – هي استخدام عبارات واضحة تدل على معنى واحد فقط هو المعنى الذي قصده القائم بالاتصال:

ويظهر لنا ذلك جليًّا في قول الله تعالى في سورة طه: ((**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى**)) (سورة طه: ٢٢)

[٨]) الرماني – أبو الحسن علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلق الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨م، ص٧٥

[٩]) أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية. أصولها ووسائلها، دار الكتب المصري، ١٩٨٦م، ص٢٨٩

أي كما قال عبد الكريم الخطيب: "تخرج بيضاء مشرقة تتلألأ كالبرق دون مرض أو برص، إذ قد يُظَنُّ أن بها برصًا أو سوءًا، لكن الآية ذكرت ((**مِن غير سوءٍ**)) لتحديد أن هذا البياض ليس مرضًا، وإنما هو معجزة إلهية كبرى."[١٠]

وهذه الصورة موجودة أيضًا في سورة النمل: (**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسِقِينَ**)) (سورة النمل: ١٢) ومن الملاحظ أن هذه الآية لا تُماثل الآية في سورة طه تمامًا تامًّا، حيث إن الآية في سورة طه أتت بعبارة (واضمم) ، بينما الآية في سورة النمل أتت بعبارة (وأدخِل)، وكذلك عدة الفروق الأخرى.

حية وثعبان

والآن، يأتي الباحث بإيراد وتدوين آراء سيد قطب في تصوير الجانّ والحية والثعبان في قصة موسى – عليه السلام –

قال الله – عزّ وجلّ – في سورة طه: ((**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَى. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى**)) (سورة طه: ١٧-٢١)

"وقعت المعجزة الخارقة التي تقع في كل لحظة؛ ولكن الناس لا ينتبهون إليها. وقعت معجزة الحياة. فإذا العصا حية تسعى. وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية؛ ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ...

والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولَّى مدبرًا ولم يعقِّب. إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى – عليه السلام – من خوف: ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولّي بعيدًا.

واطمأن موسى والتقط الحية، فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا ! .. ووقعت المعجزة في صورتها الأخرى. صورة سلب الحياة من الحي، فإذا هو جامد ميت، كما كان قبل أن تدركه المعجزة الأولى"[١١].

[١٠]) التفسير القرآني للقرآن الكريم، الكتاب العاشر، دار الفكر العربي، ص٢٠٥

[١١]) في ظلال القرآن، ج٤/٢٣٣٢

موسم الحج

قال الله تعالى: ((**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى**)) (سورة طه: ٤٠)

هذه الآية الكريمة تُعد من الشواهد التي تدل على معنى "**ثماني حجج**" التي نطق بها أهل مدين، يحسبون به السنين.

قال الله تعالى على لسان الشيخ الكبير: ((**قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**)) (سورة القصص: ٢٧)

يرى الباحث أن استخدام لفظة (حجج) في قول الله تعالى حكاية عن رغبة الشيخ الكبير إنكاح موسى إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج بدل من لفظة ثماني سنين، فيه سِرٌّ من ناحية دلالة الصورة الفنية.

ذكر ابن منظور: "والحِجُّ عَمَلُ السَّنَةِ. وَتَقُولُ: حَجَجْتُ فُلَانًا إِذا أَتَيْتَه مرَّة بَعْدَ مَرَّةٍ، فَقِيلَ: حُجَّ البَيْتُ لأَن الناس يأْتونه كلَّ سَنَةٍ. قال الْكِسَائِيُّ: كَلَامُ الْعَرَبِ كُلُّه عَلَى فَعَلْتُ فَعْلَةً إِلّا قولَهم حَجَجْتُ حِجَّةً، ورأَيتُ رُؤْيَةً. والحِجَّةُ: السَّنَةُ، والْجَمْعُ حِجَجٌ."[١٢]

ونتيجةً لهذا، يفهم الباحث أن أصل (الحجج) بمعنى (السنين) وهو مأخوذ من شعيرة الحج؛ لأنها مرة واحدة في السنة، فصار الموعد مرتبطًا بهذه الشعيرة العظيمة السنوية، وهذا من دقائق اختيار الألفاظ من القرآن الكريم. وهكذا بهذه اللفظة التي نطق بها أهل مدين، وأن موسم الحج مما كانوا يحسبون به السنين. وهكذا أيضًا ظل موسى – عليه السلام – في مهنة الرعي عشر سنين عند هذا الشيخ، ليوفّي ما عليه من صداق الزواج.

ومن الشواهد التي تدل على هذا المعنى، قول الله تعالى في سورة طه: ((**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى**))

و"إن اختيار هذه اللفظة الدالة على مرور العام في هذا الموطن من القرآن دون ورود مثيل لها يُشعر بأن هذه اللفظة مما نطق بها عرب مدين آنذاك، وهي لم تزل باقية عن عرب بمدلولها القديم هذا."[١٣]

---

[١٢]) لسان العرب، ٣٢٨/٢

[١٣]) مساعد بن سليمان الطيار، https://ar.islamicway.net/article/55688

إن اختيار هذا اللفظ في هذه القصة – فيما أرى – يُسهم في تصوير وتبيين بعض الأمور، أهمها أن عبادة الحج كانت موجودة وقتئذ. والدليل على ذلك، أن الله – سبحانه وتعالى – قد تكفَّل لسيدنا إبراهيم – عليه السلام – بأداء فريضة الحج، فقال: ((**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**)).

واصطنعتك لنفسي

قال الله تعالى في سورة طه موضِّحًا عن نعمه على موسى قبل النبوة: ((**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِئَايَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي**)) (سورة طه: ٤١-٤٢)

هذه الآية الكريمة تأتي بأسلوب "الاستعارة، ((**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**)) شبه ما خوَّله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك أهلًا للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه، ويختاره لخلَّته، ويصطفيه لأموره الجليلة، واستعار لفظ اصطنع لذلك، ففيه **استعارة تبعية**."[١٤]

والاستعارة أداة من أدوات التصوير الفني، ولتأكيد ذلك، يأتي الباحث بقول ابن عاشور في بيان هذه الآية الكريمة: "والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئًا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه."[١٥] وقوله (التمثيل) هنا، يفهمه الباحث بالتصوير. – والله أعلم –.

فضلًا عما سبق، يستنتج الباحث أن الآية الكريمة تكريم عظيم لموسى – عليه السلام – الذي اختاره الله – سبحانه وتعالى – واجتباه واصطفاه من بين الناس لحمل رسالته إلى فرعون وملئه وبني إسرائيل.

اللِّين في الكلام

قال الله تعالى: ((**فَقُولا له قَولًا لَيِّنًا لعله يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى**)) (سورة طه: ٤٤)

أمر الله سبحانه وتعالى موسى وهارون – عليهما السلام – أن يذهبا إلى فرعون الطاغية ليُعلّماه عن عبادة الله وحده، ومع ذلك رغم أن فرعون طغى وتكبر وظلم الناس، أوصى الله عزّ وجلّ لهذين النبيَّين أن يقولا لفرعون قولًا لَيِّنًا لعله يتذكر أو يخشى.

قال أحمد ياسوف: "فهذه الآية الكريمة من مظاهر التجلي الحسي الزائد منبهًا موسى – عليه السلام – وأخاه هارون إلى وسيلة الخطاب مع فرعون، ولكن القول حسيٌّ ما دام يتصل بالصوت وأعضاء النطق، أما اللين فيجلّي القول قطعة ملساء ترقّ على الجسم وتطيب المشاعر، كل هذا في مجابهة العنفوان الشديد والخشونة، كما نجد في الكلمة حركة بطيئة، حيث لا نتصور اللين سريعًا، فهي عبارات ذات نفس طويل منهما.

[١٤]) صفوة التفاسير، ج٢/٢٤١

[١٥]) التحرير والتنوير، ج ٢٢٣/١٦

فهذه المفردة تشي بمعالم تهذيبية، تختزن الرقة وأطرافها في الحديث ووسائل الملاطفة، وهذا دعوة قرآنية سامية إلى أسلوب الخطاب، ولو كان مع العدو المجاهر، مستبعدةً ما يخطر بالبال من ألفاظ شنيعة، وهذا ما تبدَّى في الداعية الأول إلى الإسلام عليه الصلاة والسلام...

فطيب الكلام صار ملموسًا لينًا غير خشن، حتى كأن الكلمات بجزئياتها تغدو قطعًا لينة تلمس باليد وتثير الشعور بالارتياح، واللين يساعد على تداخل لطرفين المؤمن والكافر مما يعجل في أمر التفاعل مع الدعوة"[١٦].

سبحان الله، عندما نتأمل هذه الآية الكريمة وجدنا لطف الله لعبده ورحمته الواسعة حيث أمر الله موسى وهارون – عليهما السلام – أن يقولا لفرعون قولًا لينًا مع أنه قد زعم الربوبية ((**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**)) (سورة النازعات: ٢٤). فما بال لطف الله ورحمته على عباده الذين يقولون دائمًا: "سبحان ربي الأعلى وبحمده" وهم ساجدون؟!.

يُحشر الناس ضحى

هناك مثال للبيان عن إسهام الزمان في تصوير القصة، وهو قول الله – تبارك وتعالى – في سورة طه: ((**فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ، مَكاناً سُوىً. قالَ: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**)) (سورة طه: ٥٨-٥٩)

قَبِلَ موسى هذا التحدي له؛ واختار الموعد المناسب وهو يوم عيد من الأعياد الذي يجمع الناسَ فيه، ويأخذون زينتهم، ويتجمعون في الأمكنة المكشوفة.

قال صاحب الكشاف: "وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم، ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر – أي إذلاله – وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث[١٧] بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر."[١٨]

ويقول سيد قطب إن موسى طلب أن يجمع الناس في وقت الضحى، وهو وقت ابتداء حرارة الشمس بعد طلوعها، "ليكون المكان مكشوفًا والوقت ضاحيًا. فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة

[١٦]) دراسات فنية في القرآن الكريم، ص١٤٠-١٤١

[١٧]) وفي طبعة أخرى: ويكثر الحديث ...

[١٨]) الكشاف، ج٢/٧١ (بتصرف)

من النهار وأشدها تجمُّعًا في يوم العيد. لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت. ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية .. !!"[١٩]

وفي مثل هذا البيان لتصوير القصة، فقد وافقه وهبة مصطفى الزحيلي حيث يستلزم أن المكان الذي يَحشر الناس فيه في يوم الزينة كان مكانًا معروفًا. ولعله كان بساحة قصر فرعون، لأنهم دائمًا يجتمعون بزينتهم ولَهوِهم فيه.

فقوله (يوم الزينة) تحديد للوقت، وقوله (وأن يحشر الناس) تحديد للمكان، وقوله (ضحى) تقييد لمطلق الوقت.

ويوم الزينة كان يوم عيد عظيم عند القبط، وهو يوم كسر الخليج أو الخلجان، وهي المنافذ والترع المجعولة على النيل لإرسال الزائد من مياهه إلى الأرضين البعيدة عن مجراه للسقي، فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولها إليها ويزرعون عليها.

وزيادة المياه في النيل هو توقيت السنة القبطية، وذلك هو أول يوم من شهر (توت) القبطي، وهو (أيلول) بحسب التاريخ الإسكندري، وذلك قبل حلول الشمس في برج الميزان بثمانية عشر يومًا، أي قبل فصل الخريف بثمانية عشر يومًا، فهو يوافق اليوم الخامس عشر من شهر تشرين (سبتمبر). وأول أيام شهر (توت) هو يوم النيروز عند الفرس، وذلك مبني على حساب انتهاء زيادة النيل لا على حساب بروج الشمس.

واختار موسى هذا الوقت وهذا المكان لأنه يعلم أن سيكون الفلج له، فأحب أن يكون ذلك في وقت أكثر مشاهدًا وأوضح رؤية.[٢٠]

أو بعبارة أخرى، نقول إن موسى – عليه السلام – اختار هذا الزمان لأنه يوم يتفرغ فيه الناس عن أعمالهم ويتخلَّون من أشغالهم وشؤونهم ووظائفهم إلى غير ذلك بحيث يجتمع أكبر عدد ممكن من الناس. ولهذا ألهم الله سبحانه وتعالى نبيَّه أن قال ((**مَوْعِدُكُم يَومُ الزِّينَةِ وأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**)) أي الموعد يوم العيد، ويوم العيد يوم الزينة، واختار وقت الضحى وهو وقت بداية وضوح النهار بحيث يكون كل الأمور واضحة.

وأما السحر كما ذكره بعض العلماء سلطانه في الليل، وأكثر وأغلب أعمال السحرة في الليل. وإذا استدعى المقام من ساحر أن يتعاطى سحرًا في النهار فإنه يختار غرفة مُظلِمة، ويُشعلها أيضًا بالأبخِرة والأَدْخِنَة، فسلطان السحر بالليل. فاختار موسى – عليه السلام – واضح النهار حتى يتمكن كل مَن حضر إلى هذا المكان المعاينة والمشاهدة بتمام الوضوح.

---

[١٩]) في ظلال القرآن، ج٤/٢٣٤٠

[٢٠]) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط٢ ،١٤١٨هـ، ج١٦/٢٤٥-٢٤٦

السحرة استرهبوا الناس

حكى الله تعالى في سورة طه بأن موسى – عليه السلام – شرع في الإعلان عن رسالته، فقال: ((**قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُم لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**)).

جاء وهبة الزحيلي في تفسير هذه الآية الكريمة قائلًا: "قال موسى لفرعون والسحرة: الهلاك والعذاب لكم إن اختلقتم على الله كذبًا وزورًا، بأن تزعموا أن الذي جئتُ به ليس بحق، وأنه سحر، فيستأصلكم الله بعذاب شديد من عنده، وقد خسر وهلك من افترى على الله أي كذب كان."[٢١]

((**فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى. قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**)) (سورة طه: ٦٢-٦٤)

لاحظ الباحث أن هذه الآيات الثلاثة تشير إلى خوف السحرة من موسى وهارون – عليهما السلام –، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم في تجميع صفوفهم، وفي تشجيع بعضهم لبعض، حتى لا يسرق موسى – عليه السلام – جاههم وسلطانهم ومنافعهم.

بيّن الطنطاوي: "قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجي والإسرار، ما استقر عليه رأيهم، من أن موسى وهارون – عليهما السلام – ساحران ((**يُرِيدَانِ**)) عن طريق سحرهما أن يُخرجا السحرة من أرضهم مصر: ليستوليا هما وأتباعهما عليها."[٢٢]

فأوجس في نفسه خيفة

قال عبد الرحمن حبنكة: "ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النَّفسيّة والأفكار. وقد تكون هذه البراعة بتقديم الفكرة من خلال نظير حسّي، أو بالمبالغة في تصويرها، أو تصوير آثارها، أو غير ذلك."[٢٣]

ومن شيء لا ريب فيه، أن القرآن الكريم أَولى وأفضل بكثير في هذا الباب، لما صوَّر عن شعور موسى – عليه السلام – من الخوف على نفسه وعلى الناس أن يفتتنوا بما فعله السحرة، قبل أن يلقي ما في يده.

قال الله تعالى في سورة طه: ((**قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُم وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**)) (سورة طه: ٦٦-٦٨)

[٢١]) التفسير المنير، ج١٦/٢٣٥

[٢٢]) التفسير الوسيط، ج٩/١٢٢

[٢٣]) البلاغة العربية، ج١/٩٤

قبل موسى التحدي، وترك للسحرة فرصة البدء، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة؛ لأنه لسحر عظيم فيما يبدو، وحركة مفاجئة ماجت به الساحة حتى موسى: ((**فَإِذَا حِبَالُهُم وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى**))

أحسَّ موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئًا هائلًا. والدلالة من هذا التعبير كما اتضحت أمامنا، تصوّر لنا قوة السحر وضخامته وكما يقول سيد قطب: "والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى، ومعه ربه يسمع ويرى. وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل يُنسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكّره ربه بأن معه القوة الكبرى: ((**قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**))"[٢٤]

وبعد أن ألقى موسى العصا، وقعت المفاجأة الكبرى. والسياق في هذه الآية كما بيّنها سيد قطب، يصوّر ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة، فهم أحرص الناس على الفوز فيها، والذين كانوا منذ لحظة يُحمِّس بعضهم بعضًا ويدفع بعضهم بعضًا. والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى.

وأضاف سيد قطب: "ويخيَّل إليه – وهو الرسول – أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تَحَوُّلٍ كاملٍ في مشاعرهم ووجدانهم، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه؛ ولا يكفي النطق للإفضاء به."[٢٥]

فألقي السحرة سُجَّدًا

قال الله عزّ وجلّ: ((**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**)) (سورة طه: ٧٠)

إن التعبير بهذه الجملة تصوّر في ذهننا قوة البرهان الذي رآه السحرة بعيونهم، حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها، وأطلق الله – سبحانه وتعالى – عليهم اسم السحرة في حال سجودهم له – تعالى – وإيمانهم به، نظرًا إلى حالهم الماضية.[٢٦]

فيستفيد الباحث أن ظهور بطلان سحرهم، واعترافهم بأن موسى على الحق، قد دفعهم إلى السجود لله – تعالى – وأن نور الحق قد أضاءهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان.

---

[٢٤]) في ظلال القرآن، ج٤/٢٣٤٢

[٢٥]) في ظلال القرآن، ج٤/٢٣٤٢

[٢٦]) انظر: التفسير الوسيط، ج٩/١٢٦ (بتصرف)

وهم قبل ذلك ينتظرون الجزاء من فرعون – قبحه الله – على مهارتهم، وليسوا أصحاب عقيدة، ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حوَّلهم تحويلًا.

ودلالة الصورة الفنية الموجودة هنا، كأن أحدًا قد قهر هؤلاء السحرة إليه قهرًا، وألقاهم إليه إلقاءً.

ولننظر إلى ما قاله صاحب الكشاف: "سبحان الله ما أعجب أمرهم. قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقَوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين!"[٢٧]

الخاتمة

وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

أولًا: القصة هي ما تُنقل وتُحدَّث بها قولًا أو كتابةً، فلا يوجد قصص في القرآن من ذكر الأحوال الحالية في زمن نزوله مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم.

ثانيًا: ورد اسم موسى في سورة طه ست عشرة مرة، وتسعة منها وردت في الآيات التي تتضمن صورة فنية.

ثالثًا: الصورة الفنية تعد من أهم عناصر التعبير، وهي الحد الفارق الذي يميز بين التعبير والتصوير.

رابعًا: الصورة الموجودة لقصة موسى في سورة طه قد تتنوع عن الصورة في سور أخرى لاختلاف الأحوال والأوقات.

خامسًا: دلالة الصورة الفنية في القرآن الكريم دلالة متميزة متفردة، وأنها ليست على نمط واحد فهي متنوعة وأغراضها متعددة، ومصادر التصوير في القرآن أكثر من أن تُحصَى.

المصادر المراجع

حازم القرطاجني، (المتوفى:٦٨٤هـ)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**.

ابن منظور، ١٤١٤هـ، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣.

أحمد أحمد غلوش، ١٩٨٦، **الدعوة الإسلامية. أصولها ووسائلها**، دار الكتب المصري.

أحمد ياسوف، ٢٠٠٦م، **دراسات فنية في القرآن الكريم**، دار المكتبي، ط١.

بكري شيخ أمين، ١٩٩٤م، **التعبير الفني في القرآن الكريم**، دار العلم للملايين.

جابر عصفور، ١٩٨٠، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، دار المعارف – مصر.

[٢٧]) الكشاف، ج٣/٧٥

الرماني – أبو الحسن علي بن عيسى، ١٩٦٨م، **النكت في إعجاز القرآن**، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلق الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٢.

الزمخشري، ١٤٠٧هـ، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣.

سيد قطب، ١٤١٢هـ، **في ظلال القرآن**.

سيد قطب، ١٩٨٣م، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، ط٨.

فرانسو مورو، ٢٠٠٣م، **البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية**، ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير، أفريقيا الشرق.

محمد عبد اللاه عبده دبور، ١٩٩٦م، **أسس بناء القصة من القرآن الكريم**، جامعة الأزهر – كلية اللغة العربية بالمنوفية.

محمد سيد طنطاوي، ١٩٩٨م، **التفسير الوسيط**، دار السعادة.